المدارس والبيوت

لجناب رفعتلو اسعد افندي داغر

انّ المدارس روضةٌ لِأُلي النهى والعلم من افنانها الميلاد
والعلم سرّ النجح في الاعمال وأل أعمال هذي السرّ في الاثراء

عليكِ يا ديار العلم السلام . ما زفّ الظليم ورفرف . والى داراتكِ الحنين والهيام . لا الى دارة جلجلٍ ورفرف . ونحو برقكِ ينصرف شوق اهل الوداد . لانحو برق نهد واليمامة والاغاد . وبكِ الشبيبُ يستجاد والغزلُ يستطاب . لا بسلمى ولبنى وزينب ورباب . وبجداة عيسكِ يخلق حمد السرى عند الصباح . لا بجداة عيس المضاب والبطاح . فانتِ منبتُ اسلة الفضل . ومضربُ عسلة النبل . واهلكِ عين الوجاهة والفخر . ووجه المكانة والقدر . وقومكِ قدّام رفعةً على جميع بني حوّاء . انهم اشرف من تحت السماء

قومٌ اذا انتسبوا كفاهم قولهم لا عيبَ فيهم غيرَ أنّا نعلمُ
واذا سألت عن الافاضل في الورى تجد الجواب من الجميع هُمُ هُمُ

فلا زالت بيوتكِ مفتوحة الابواب . واسعة الجناب . فسيحة الرحاب . آهلةً بالطلاب . غنيّة بالآداب . آخذة من العلم باعظم الاسباب . ولا برحت تجارتكِ متسعة النطاق . ممتدة الرواق . رائجة الاسواق . مشرئبّةً لها الاعناق . محدوّة عليها النياق . من سائر الانحاء وجميع الآفاق

ولعلّ بعض السادة القراء يرمقني شزرًا . ويستوقفني زجرًا . ويرميني بالخرق . ويأخذني بالحمق . من وجه اني تعديت الحقيقة الى المجاز . وترديت باسمال الاطناب فوق سربال الايجاز . فرحماك ايها الراعي ترسّل . وحنانيك ايها الآخذ أنّد وتمهّل . فاني رافع اليك كلمة نجيبك الصدق ونعمَ النجوى . وصادع لديك بامر وليّك الحق وياحبذا المولى . فاني ما اتيت لافرّر لديكم ايها السادة حقائق تجهلونها او اثبت مبادئ تنكرونها بل لاستلفت انظاركم نحو اهمية المدارس وشدة احتياجنا اليها من باب التذكير فقط فارجوكم الالتفات

لقد فقدت منا او تكاد تفقد قابلية الاصغاء للمقابلة بيننا و بين اهل الغرب لاننا نراها مقدمة الافاضة في اكثر الابحاث والمواضيع حتى شبعت منها بطون الاستماع وقزت عنها نفوس الاطلاع . وهكذا ترون السواد الاعظم منا وانا اولهم حينما يلقيها عليهم خاطب يسدّون دونه الآذان ربما

تذهب تموجات صوته في الهواء واذ يعثرون عليها في المطالعة يخطونها الى ما بعدها وهي اكبر ذوات الصدر بلا مراء

فللناقد البصير مندوحة للوقوف عند هذا السرّ الفاضح وقفة المبهوت الحائر . حتى اذا استجلاهُ صفّق صفقة الآسف الخاسر . نعم نأبى الوقوف في معرض المقابلة تجاه اهل الضرب ونُعرض عمن يعرضها علينا بوجوهٍ باسرة قائلين اليك عنا ببضاعةٍ مزجاة من سَنَط المتاع . لا تشترى ولا تباع . ولكن أتدري لماذا نفعل ذلك . أنعلم ما هو السرُّ في اننا نرفض هذه المقابلة ونسأم حتى ذكرها . على رِسْلكم في طلب الجواب فربما أُطِلُّ عليهِ من شُرفة التمثيل . فانهُ اسهل سبيل واجلى دليل .

مثلنا مثلُ عين رمداء اذا وقع عليها النور نبّه اعصابها وهيج آلامها فنرفضهُ ونفضّل عليهِ الظلمة . ومثلنا مثلُ منبعثٍ في الشرور فاذا صحب اهل الصلاح رأى منهم مهازًا مبذولاً في شاكلة ضميرهِ فيختار الاعتزال عنهم ليريح ضميرهُ منهم

وحسبي هذان المثلان فاني اشتمُّ منهما رائحة التعليل الشافي عن رفضنا تلك المقابلة ومنها يفهم لاوّل وهلةٍ اننا بهذه المقابلة نظهر ادنى من الغربيين في سلم الحضارة الى درجة تبعثنا على التداوة باء الخجل والصبغ بصبغة الاستحياء . فيكبر على نفوسنا الوقوف عندها كما يكبر على العريان الوقوف في حضرة المكنسي فتهبط منها افلت من جرادة العيار . ونحن على حدّ المثلين العاميين " نداوي الحمى بنشر البطيخ " ونقول " لا بد ما نغتني والفقر ما هو عيب " على انني من وراء هذا التمثيل أستشفُّ رجاء الاصلاح واستلمح نور الامل بالشفاء ان تداركنا فساد الحال وتلافينا سير دائنا العضال . واسمع صوت العناية التي لم تسح بانحطاطنا عن هذه الدرجة ينادي " يا عبادي الذين اسرفوا لا تقنطوا من رحمة الله "

فالعين الرمداء ليست عمياء ما دامت تتأثر بوقوع النور على شبكتيها فترجع فيها المعالجة وتنفع . والمنبعث في الشرور ليس شرّيرًا محضًا ما دام ضميرهُ حيًّا يؤثّر فيهِ مهاز التأنيب والتوبيخ فيرجى ارعواؤهُ ويؤمّل اصلاحهُ . والعُريان لا يُعرّى من الآداب ما دام تخجله يبعثهُ على الاختباء من عين تُبصر عورة جسدهِ فيُرجى ستر عورته وتغطية عريهِ . وهكذا نحن والحمد لله لسنا امواتًا بالجهل والغباوة ما دمنا نشعر بحياة غيرنا — وان يكن

" ليس مَنْ ماتَ فاستراحَ بميتٍ انما الميت ميّت الاحياء "

فلنا سعة للانتعاش والتقدم ان طلبنا الامور باسبابها ودخلنا البيوت من ابوابها . وليس التقدم امرًا مجهولاً او شيئًا معدومًا نحتاج في محاولة اكتشافهِ او اختراعهِ سوى التجربة والامتحان وقتًا

طويلاً بل طريقة مكتشفة وآلة مخترعة وراء هذا البحر المتوسط وفي استطاعتنا معرفتها والوصول اليها ان اردنا السلوك بموجبها والاعتماد عليها بدون ان نركب اليها البحار ونحتمل في التفتيش عليها معاناة الاخطار. واريدكم استغرابًا بالقول اننا نستطيع معرفتها الآن حتى في نفس هذه الدقيقة. وأزيل استغرابكم بالايضاح للمبهم والاعراب عن المعجم بطريقة الفرض والاستدلال فهلمَّ نتساءل عن اهل الغرب المفقودين في جيد التمدُّن عقد الحباب على الحميًّا والباذخين في هذا القرن من الحضارة شأوًا يقطع الثريَّا. فالى مَ ينسب السرّ في تقدمهم علينا. أَلبلادهم كلاَّ فبلادنا "اطيب جرعى. وافضل مرعى" و"أصحّ ماء. وانقى هواء" فاذًا لرجالهم لا. اذ ان رجالنا اصدق عزيمة واعظم اقدامًا من حيث الفطرة الطبيعية. اذًا عقولهم افضل من عقولنا كلاَّ ولا هذا ايضًا فان الاختبار يدلنا على اننا لسنا مقصورين دونهم في سموّ العقل والادراك. فماذا اذًا أهبط عليهم التقدم من سماء الصدفة وأوحي اليهم العمران من عالم الاتفاق كلاَّ كلاَّ بل انما اتسعت دائرة تمدنهم بازدياد ثروة غناهم وزادت ثروتهم باتساع نطاق تجارتهم. واتسع نطاق تجارتهم باتقان صناعتهم وزراعتهم بواسطة علومهم ومعارفهم. فذلَّلوا امام تجارتهم في الخارج سلطان البحر بجوارٍ تشقُّ متن عبابه شمالاً وجنوبًا شرقًا وغربًا. ومهَّدوا قدّامها عقبات البر. بان ضربوا فيه خطوط الحديد وسيَّروا عليها قطر البخار تمخ فيه فتردُّ صدور بطاحه على اعجاز هضابه. وتنهب فلواته نهبًا. ومدُّوا لها اسلاك البرق تحت الماء. وفي عنان السماء. وعزَّزوها من الداخل بصناعتهم التي اعدُّوا لها آلات الاتقان ومهَّدوا لها سبل الزخرفة والتأنق ودعموا بينها بعمود الزراعة التي خدموا في طريق تحسينها حراثة الارض خدمة صادقة فادرَّت عليهم خيراتها ومحصولاتها

قلنا ان اتقان صناعتهم وزراعتهم كان بواسطة علومهم ومعارفهم فلنرجع الى سلسلة الاستدلال ونقول ما علومهم ومعارفهم الاَّ اثمار عقولهم وليست عقولهم سوى اغراس صغيرة قامت في رياض المدارس يسقيها ماء الاجتهاد وتدفئها حرارة الثبات. فاذًا لنا في البحث عن تقدمهم سلسلة صاعدة تتوال فيها. المدارس عندهم روضة نمت فيها اغراس عقولهم وعقولهم اشجار اثمرت العلوم والمعارف وهذه حسَّنت صناعتهم وزراعتهم. وهاتان وسعتا نطاق تجارتهم وهاتو زادت ثروة غناهم وغناهم وسَّع دائرة تمدنهم

ولا بأس من ان نرجع بها نازلاً هكذا دائرة تمدن الغربيين اتسعت بزيادة ثروتهم وثروتهم زادت باتساع نطاق تجارتهم وتجارتهم اتسع نطاقها باتقان صناعتهم وزراعتهم وصناعتهم وزراعتهم أتقنتا بواسطة علومهم ومعارفهم. وعلومهم ومعارفهم اثمار عقولهم. وعقولهم اغراس قامت في

رياض المدارس

فهلاّ يازيد الشرقيّ التارع الى مجاراة عمرو الغربي في ميدان التمدن وساحة الحضارة كيف تحسن معهُ الكرّ والفرّ وتصبر على الطعن والضرب . ودائرة غنائك اضيق من حجر الضب . وصناعتك وزراعتك وتجارتك اسماء بلا مسمّى وعلومك ومعارفك قليلة جدًّا ان لم اقل معدومة وعقلك غرس ذابل ان لم اقل يابس . ومدارسك صغيرة حقيرة ان لم اقل دوارس

فقد علمنا الواجب علم اليقين . ووقفنا على سرّ تقدم الغربيين أفلا تقتدون معي الآن بنار الغيرة على صوالحنا التي اصبحت مدوسة تحت اقدام النوائي والاهمال وتسلمون لاول وهلة باهمية المدارس التي هي الحلقة الاولى من سلسلة العمران والدرجة الاولى من سلم الحضارة وان فعلتم ذلك فهزّوا منكم عطف الحمية وانهضوا بلواء الاريحية رافعين منارها معزّزين انصارها آخذين بناصر الذين هممهم السعي في احياء معالمها وتوخي الاسباب العائقة عليها بالتقدم والنجاح والمزيلة منها الموانع العائقة بفوائدها الخطيرة من نحو ما اشرت اليهِ في المقالة الماضية . نعم اننا لا نجد منها في هذا الجيل كمال الفائدة التي يجدها اهل الغرب . لاننا نأخذ فيها ابتداء وكل ابتداء صعب

واني لأخلص اليمان وانزه النفس من طائلة التمويه والاغراء واقول اننا لسنا واجدين من اولادنا وان وضعناهم في المدارس رجالاً يضاهون الغربيين عزمًا واقدامًا وليس من مؤاخذةٍ عليهم في ذلك ولا على المدارس والمعلمين بل انما نحن المؤخذون . فاللوم — وارجوكم العفو — علينا وتبعة التقصير عائدة الينا لاننا اهل هذا العصر رجالاً ونساء اذ لم نهذبنا المدارس وتثقفنا المكاتب لسنا اهلاً بعد لان نجعل بيوتنا المدرسة الاولى لاولادنا كما يفعل الاوربيون بحيث نفطمهم عن الحليب . ونرضعهم مبادئ الادب والتهذيب

هذه حالتنا من حيث المدارس في هذا العصر ولكن ستأتي ايام حين تنضم الى آبائنا ويكون اولادنا اهلاً لمجاراة الغربيين في طريق التقدم فيجعلون بيوتهم مدارس ابتدائية لاولادهم ومنها يخرجونهم الى المدارس العمومية حيث تنمو اغراس عقولهم فتثمر العلوم والمعارف فهذه توسع نطاق تجارتهم بتحسين صناعتهم وزراعتهم وهذه تزيد ثروة غناهم وهذه توسع دائرة تمدنهم وعمرانهم

فلنجتهد اذًا في تعليمهم فنزيل من امامهم اعظم صعوبة للارتقاء في معراج الحضارة ونكسب منهم الذكر مدى الاحقاب ومن الله الاجر والثواب

صار للزبدة الصناعيّة ٣٧ معملاً في الولايات المتحدة وقد صُنع فيها في العام الماضي ١٢٦٤٥٧٤٠ رطلاً بصريًا